

العنف الرمزي في المدرسة الجزائرية: قراءة سوسيوترابوية تحليلية

Symbolic Violence in the Algerian School: A Socioturbanoanalytical Reading

كريم بطاهر^{1*}، جامعة مستغانم، الجزائر، karim.betahar.etu@univ-mosta.dz

مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي وفلسفة السلم

اسعد فايزة زرهوني²، جامعة مستغانم، الجزائر، zerhounifaiza@yahoo.fr

تاريخ قبول المقال: 06-12-2023

تاريخ إرسال المقال: 02-08-2023

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع العنف الرمزي في البيئة المدرسية، والذي يعد أخطر مظاهر العنف التي تشهده المدارس بشكل عام، والمدرسة الجزائرية بوجه خاص، في العقود الأخيرة. يعبر العنف الرمزي كما تضمنته كتابات بيير بورديو عن مجموعة من الممارسات القيمية والأخلاقية والوجدانية والثقافية، التي تحمل في طياتها عنفا مقنعا وغير مرئيا، حتى بالنسبة لضحاياه، ما يعكس الأزمة القيمية التي تمر بها المنظومة التربوية. قد حاولنا خلال الدراسة التعريف بالظاهرة من خلال الوقوف على خصائصها، وكيف أصبحت المدرسة كآلية ممارسة للهيمنة والسيطرة، عبر إخفاء في كنفها صور للتعسف والتسلط، واللامساواة، والتمييز، والتهميش، وكذا السلطة الرمزية،... الخ.

الكلمات المفتاحية: العنف، العنف الرمزي، المدرسة الجزائرية.

Abstract:

This study addresses the topic of symbolic violence in the school environment, which is considered one of the most dangerous manifestations of violence in schools generally, and particularly in Algerian schools in recent decades. Symbolic violence, as described in Pierre Bourdieu's writings, involves a range of cultural, moral, emotional, and ethical practices that carry concealed and invisible violence, even for its victims. This reflects the crisis of values within the educational system. Throughout the study, we attempted to define the phenomenon by examining its characteristics and how schools have become mechanisms of exercising dominance and control, hiding forms of arbitrariness, oppression, inequality, discrimination, as well as symbolic authority, and so on.

Key words : Violence, Symbolic violence, Algerian school.

مقدمة:

تحتل المدرسة مكانة متميزة في المجتمع الجزائري، نظرا للعديد من الوظائف الاجتماعية والتربوية والتعليمية المنوطة بها، فهي لا تكتفي بإكساب المتعلمين العلوم والمعارف والمهارات فقط، بل تساهم أيضا في إعدادهم روحيا وجسميا وسلوكيا، لذلك كانت المدرسة ولا زالت تمثل ثقافة المجتمع وفلسفته. بيد أن المدرسة وأمام هذا الزخم الحضاري والتكنولوجي الذي يجتاح العالم تعيش في الآونة الأخيرة انحلالا أخلاقيا غير مسبوق، نتيجة العنف الذي طرق أبوابها وبكافة أشكاله، والذي لا يعكس بتاتا، مبادئها وقيمها المستمدة أساسا من رحم المجتمع، ما يجعل تحقيق أهدافها التربوية يقع على المحك، ولعل من أبرز أشكال العنف الشائعة في الفضاء المدرسي، نجد العنف المرئي أو الكلاسيكي ممثلا في العنف الجسدي واللفظي والمادي، وآخر خفي قديم جديد يطلق عليه بالعنف الرمزي، هذا الأخير يعد أخطر أنواع العنف، لكونه يأخذ صورته المشروعة بقدرته على إخفاء مقاصده، إذ يكرس المسيطر سيطرته من غير إدراك المسيطر عليه، والأكثر من ذلك أنه أشد تأثيرا على الضحية، مقارنة بأنماط العنف الأخرى، حيث يتسبب في ضغوط كبيرة عليه تؤدي به إلى الشعور بالألم والإحباط والصراع النفسي.

على الرغم من وجود العنف الرمزي منذ القدم إلا أن الكشف عنه تحقق في العقود الأخيرة فقط، وقد كان بيبير بورديو أول من نبه إلى خطر العنف الرمزي في سياقه الاجتماعي و التربوي، حيث أبرز في العديد من كتاباته، تمثلاته المتعددة، والذي يتخذ من الرموز و الصور كأدوات للسيطرة والهيمنة لحملها معاني ودلالات مؤثرة، بل ينظر إليه كسلوك مقبول اجتماعيا دون وعي بضغوطه المعنوية، وبالرغم من أن الدراسة التي أجراها بورديو وباسرون تخص النظام التعليمي في فرنسا، إلا أنها مثلت حجر الزاوية وتحديا جديدا، ارتكز عليه الباحثون في محاولتهم البحثية إسقاط مقاربة العنف الرمزي على أنظمتهم التربوية ومنها النظام التربوي الجزائري.

يؤسس السياق السابق إلى طرح الأسئلة التالية: ماذا نقصد بالعنف الرمزي؟ وفيما تتمثل مقاربة بيبير بورديو حول عنف المدرسة الرمزي؟ وما أبرز تجلياته في الحقل المدرسي الجزائري؟

من أجل إدراك الهدف من الدراسة، حاولنا إعطاء قراءة سوسيوتربوية لمجموعة من العناصر البحثية الرئيسية التي يتضمنها موضوع العنف الرمزي في الوسط التربوي، مع إضفاء طابع تحليلي لها، نلامس من خلالها الواقع الحقيقي لإشكالية العنف الرمزي، وقد ركزنا في ذلك على تحديد مفاهيمي للدراسة وخصائص العنف الرمزي، وكذلك على الدور المدرسي في إنتاج العنف الرمزي من منظور بيبير بورديو، إضافة إلى الكشف عن أبرز تجلياته في الحقل التعليمي بالجزائر، ثم حول سبل مكافحة العنف الرمزي في مدراسنا.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي للدراسة والخصائص العامة للعنف الرمزي

من أجل إزالة اللبس الذي لازال يدور حول موضوع العنف الرمزي لدى الكثيرين من الأشخاص، وخاصة المنتمين إلى قطاع التربية، بالرغم من الدراسات التي أجريت حوله، قد ارتأينا تخصيص المبحث الأول من الدراسة حول ماهيته، والذي يتضمن مطلبين، أولهما كمدخل مفاهيمي للدراسة، وثانيهما لإبراز خصائص العنف الرمزي العامة، وكل ذلك تجذونه بشكل موضح ومفصل فيما يلي:

المطلب الأول: مدخل مفاهيمي للدراسة

نركز في هذا المطلب على إجراء ضبط مفاهيمي دقيق لبعض المصطلحات المتصلة بشكل مباشر بموضوع الدراسة، والتي تضم العنف، والعنف الرمزي، والمدرسة.

أولاً: مفهوم العنف: (la violence)**1: لغة**

إذا توسعنا في البحث عن مصدر كلمة العنف violence من الناحية التاريخية فسنجد "أنها مشتقة من الكلمة اللاتينية violocntia وتعني إظهاراً عفويا وغير مراقب للقوة كرد على استخدام القوة المتعمد".¹

وجاء في معجم لسان العرب لابن منظور أن العنف هو "الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق، عنف به وعليه، يعنف عنفاً وعنافة، وأعنفه وعنفه تعنيفاً وهو عنيف إذا لم يكن رفيقاً في أمره، واعتنف الأمر، أخذ به عنف".²

2: اصطلاحاً

تتعدد وتتوزع دلالات العنف، فمن الصعوبة بمكان أن نجد تعريفاً يلقي إجماعاً بين الباحثين، وهذا راجع إلى الاختلاف الموجود في اتجاهات واهتمامات الباحثين، لكن ذلك لا ينفي من وجود بعض التعريفات التي يمكن أن تكون الأقرب إلى الإجماع ومن ضمنها:

¹ - محمود سعيد الخولي، العنف المدرسي الأسباب وسبل المواجهة، مكتبة أنجلو مصرية، القاهرة، 2008، ص59.

² - ابن منظور، لسان العرب، المجلد التاسع، دار صادر، بيروت، 1968، ص257.

من يعرفه على أنه " هو السلوك المشوب بالقسوة والعدوان، والقهر والإكراه وهو عادة سلوك بعيد عن التحضر والتمدن، تستثمر فيه الدوافع والطاقات العدوانية استثمار صريحا بدائيا كالضرب والتقتيل للأفراد، والتكسير والتدمير للممتلكات واستخدام القوة لإكراه الخصم ويمكن أن يكون العنف فرديا أو جماعيا"¹.
في تعريف آخر "هو إلحاق الأذى بالآخرين قولاً أو فعلاً وما تحمله الكلمة من معنى وبأي أسلوب كان".²

أما من الناحية الاجتماعية فهناك العديد من الاجتهادات العلمية لباحثي علم الاجتماع التي أولت أهمية بالغة لموضوع العنف، أبرزها تعريف الباحث بدوي في مؤلفه معجم المصطلحات الاجتماعية الذي يصف العنف بأنه " الاستخدام بطريقة غير مشروعة أو غير قانونية للقوة أو القوة التي من شأنها أن تؤثر على إرادة الأفراد".³

بينما عرفته أميمة منير جادو أنه: " أي سلوك يصدر عن فرد أو جماعة تجاه فرد آخر أو آخرين ماديا كان أو لفظيا، مباشرا أو غير مباشر، نتيجة الشعور بالغضب والإحباط ، أو الدفاع عن النفس والممتلكات ، أو الرغبة في الانتقام من الآخرين ، أو الحصول على مكاسب معينة، ويترتب عليه إلحاق أذى بدني، أو مادي، أو نفسي، بصورة متعمدة بالطرف الآخر".⁴

ثانيا: مفهوم العنف الرمزي

قبل الخوض في تعريف العنف الرمزي لابد من الإشارة بأن هذا المفهوم مركب من لفظين هما العنف والرمز ، وبما أننا تطرقنا إلى مصطلح العنف قبلا، لابد من تعريف الرمز باعتباره الصفة الأساسية لهذا الأخير، ويمكن تحديده وفق ما يلي:

1: الرمز: لغة

جاء في لسان العرب أن الرمز: تصويت خفي باللسان كالهمس وبصير تحريك للشففتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إظهار بصوت إنما هو إشارة بالشففتين، وقيل الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشففتين والفم.⁵

¹- محمود سعيد الخولي، مرجع سبق ذكره، ص60.

²- علي عبد القادر القرالة، مواجهة ظاهرة العنف في المدارس والجامعات، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2015 ص13.

³- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص141.

⁴- أميمة منير جادو، العنف المدرسي بين الأسرة والمدرسة والإعلام، دار السحاب للنشر، مصر، 2005، ص54.

⁵- ابن منظور، مرجع ساق ذكره، ص223.

كما تضمن المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية إشارة إلى الرمزية ويعرفها على أنها "نسق من الرموز للدلالة على معان خاصة أو التعبير عن حقائق ومعتقدات كالرمزية الأدبية والرمزية الفنية".¹

2: اصطلاحا:

يعرف أنتوني غدنز كلمة الرمز في كتابه علم الاجتماع بأنه أي إشارة إلا ولها معنى ودلالة، ووفقا لذلك فإن الكلمات التي نستعملها للإشارة إلى أمور محددة هي في واقع الأمر رموزا تمثل المعاني التي نقصدها.²

فالرمز إذا منظومة من الإشارات الجسدية والفيزيائية الدالة على معاني ودلالات محددة كحركات الوجه والشفنتين والعينين وإحياءات الجسد، وأيضا تلك الكتابات الحائطية التي تترك انطبعا لدى المتلقي. في علم الدلالة اللغوية، يأخذ الرمز صورته بوصفه علاقة بين دال ومدلول ، أو ما بين العلامة والرمز، بحيث العلامة تمثل الموضوع وهي الحضور والمجسد، والرمز يتمثل في دلالة الإشارة ومعناها ، فالكلمة بوصفها علامة ليست رمزا بذاتها بل الفكرة التي تتضمنها تمثل الرمز، وبعبارة أخرى تمثل العلامة لحظة فيزيائية مادية (كلمة، رسم، نقش، حيوان) أما الرمز فيتمثل في المعنى المتجسد في العلامة: مثل القوة، والسلام ، والحب، و الجمال.³

بعد أن عرجنا بشكل منفرد للكلمتين المكونة للمفهوم، يتضح ولو جزئيا المعنى الشامل لمصطلح العنف الرمزي، الذي يحمل العديد من التعاريف والمعاني، وهو ما يفسر اختلاف وجهات النظر بين الباحثين حول المفهوم، لكن ذلك لم يمنع من الاتفاق القائم حول خطورة هذا الشكل من العنف، إذ يعرفه بيبير بورديو في كتابه الحس العملي " بأنه عنف ناعم خفي غير مرئي وهو خفي مجهول من قبل ممارسيه وضحاياه في آن واحد، ويتجلى هذا العنف في ممارسات قيمية ووجدانية وأخلاقية وثقافية..."⁴ كما يقصد به، خلق جو من التوتر من خلال إثارة القلق النفسي أو إثارة الرعب، وهو يعد نوعا من السلطة على الأفكار والأحاسيس ، كما يدل "العنف الرمزي على قمع العقول والنفوس لا على قمع

¹ - مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1982، ص92.

² - أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصباغ، مؤسسة ترجمان للوحدة العربية، لبنان، 2005، ص76.

³ - علي أسعد وطفة، من الرمز واللغة إلى ممارسة العنف الرمزي، مجلة شؤون اجتماعية، العدد 104، 2009، ص52.

⁴ - Bourdieu pierre, le sens pratique, Paris, 1980, p219.

الأجساد، إنه عنف إيديولوجي يقوم مثلاً على قمع فئة الأفكار ، فئة تتحكم فيها الفئة الأولى، والعنف الرمزي صامت يتوجه إلى تحطيم المعنويات وطمع الرغبات وضبط الحاجات ¹.

ثالثاً: تعريف المدرسة

حظيت المدرسة منذ القدم باهتمام بالغ من طرف المجتمعات ونخبها على حدّ سواء، وهو ما يفسر تعدد وتنوع الدراسات التي أجريت حولها، وقد اختلف الباحثين في تعريفاتهم للمدرسة، باختلاف الاتجاهات النظرية ومناهج بحثها، إلا أن ذلك لا ينفى وجود بعض أوجه الاتفاق على الأقل في جوانبها العامة، فمعظم الباحثين اليوم يتفقون على كون المدرسة نظاماً اجتماعياً يتصف بالتعقيد والكثافة للسلوك البشري المنظم الذي يؤدي العديد من الوظائف الأساسية داخل الهيكل الاجتماعي .

ويعرف فرديناند بويسون المدرسة: "بأنها مؤسسة اجتماعية ضرورية تهدف إلى ضمان عملية التواصل بين العائلة والدولة من أجل إعداد الأجيال، ودمجها في إطار الحياة الاجتماعية ²".

ومن ثمّ فالمدرسة هي مؤسسة اجتماعية تربوية أوجدها المجتمع بهدف تنشئة الأفراد وإعدادهم معرفياً ونفسياً وبدنياً وسلوكياً ، ووفقاً لذلك فإن المدرسة الجزائرية هي الأخرى تطمح إلى تحقيق نفس الأهداف لكن بأسس وأنماط تربوية مغايرة، يكون لها علاقة مباشرة بفلسفة المجتمع الجزائري، حيث ينقسم النظام التعليمي في الجزائر إلى ثلاث أطوار وهي الطور الابتدائي والمتوسط والثانوي، يكتسب خلالها المتدريس مختلف المعارف العلمية والأدبية والدينية وغيرها.

المطلب الثاني: حول الخصائص العامة للعنف الرمزي

نظراً لطبيعته النفسية التي تؤثر بعمق، يُعتبر العنف الرمزي أحد أشكال العنف الأكثر خطورة، وهذا النوع من العنف موجه إلى فئة محددة أو أفراد معينين، بل إلى المجتمع بأكمله، وهذه بعض سمات العنف الرمزي:

- الطابع الجماعي للعنف الرمزي، حيث يُمارسه مجموعة من الأفراد في المجتمع، بغض النظر عن صورته المعبرة ونوع الفئة المستهدفة، ولا ينفى ذلك ممارسته من قبل فرد واحد في بعض الأحيان ³.

¹- علي سموك، إشكالية العنف في المجتمع الجزائري من أجل مقارنة سوسيولوجية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص15.

²- عبد الإله فرج، العنف عند التلاميذ في الوسط المدرسي (المفهوم - الأسباب)، منهل الثقافة التربوية، <https://www.manhal.net/art/s/20883> ، 2016، تاريخ التصفح: 20، 06، 2023.

³- نورة عامر، التصورات الاجتماعية للعنف الرمزي من خلال الكتابات الجدارية (شهادة ماجستير)، قسم علم النفس وعلوم التربية، جامعة منتوري بقسنطينة، 2005-2006، ص101.

- الصبغة الاجتماعية للعنف الرمزي، فهو يحدث داخل المجتمع، ولا يمكن فصله عن السياق الاجتماعي الذي يحدث فيه، إنه ظاهرة اجتماعية تتطوي على سلوكيات مخفية وممارسات عنيفة نفذها أفراد المجتمع.¹
- خصوصية العنف الرمزي، حيث يتم استخدام رموز وإشارات ودلالات معينة، هذا الترميز يمكن أن يشمل مشكلات اجتماعية، فالمعاني التي يحملها العنف الرمزي تكون غالبًا مستترة وغير مرئية، ومع ذلك تؤثر بشكل كبير على الأفراد الذين يتعرضون لهذا النوع من العنف.
- ارتباطه بالصور، سواء كانت هذه الصور من إنتاج فئة معينة أو من قبل مؤسسات الدولة، مثل التلفزيون ودلالاته الرمزية العنيفة.²
- يكتسب العنف الرمزي مظهرًا مشروعًا بقدرته على إخفاء أهدافه، وهذا ما تناوله بيير بورديو بالتفصيل في أعماله، خاصة في سياقه التربوي.
- يشترك العنف الرمزي مع أشكال أخرى من العنف في الهدف العام، والذي يتمثل في إلحاق الضرر بالآخرين، ولكنه يختلف في طريقة تنفيذه وصورته المستترة.
- يتمتع العنف الرمزي بقوة وتأثير كبيرين نظرًا لطريقته وللرموز والمعاني التي يحملها. إنه عنف مخفي يعتمد على هذه الرموز والدلالات.
- العنف الرمزي يهدف إلى فرض السلطة والنفوذ بطريقة تعسفية استبدادية حيث يعتقد بورديو أنه ينشأ بسبب أحداث اجتماعية.
- العنف الرمزي يحمل العديد من الخصائص والمميزات التي تختلف باختلاف المجتمع المستهدف أو الشريحة المبتغى تعنيفها أو الفرد الموجه له العنف.³

المبحث الثاني: العنف الرمزي في الحقل التربوي وسبل مكافحته وطنيا

كثر اللغط كثيرا حول العنف الرمزي في المجال التربوي، فلطالما اقترن اسمه بالمؤسسة التربوية، لكن المطلع لأدبيات البحث العلمي، لا يجد غرابة في ذلك، فالمنجم الأول لتأسيس هذه النظرية كان في هذا الحقل، بفضل جهود السوسيولوجيين بورديو وباسرون، من خلال دراستهما للنظام التعليمي في فرنسا، لهذا تناول موضوع العنف الرمزي بعيدا عن سياقه التربوي تعد دراسة مبتورة وغير مكتملة، من منطلق ذلك عملنا في المبحث الثاني على تسليط الضوء حول مقاربة بيير بورديو (المدرسة والعنف الرمزي)،

¹ - عائشة لصلح، العنف الرمزي عبر الشبكات الاجتماعية الافتراضية، مؤسسة دراسات وأبحاث، الجزائر، 2016، ص11.

² -نورة عامر، مرجع سبق ذكره، ص98-99.

³ -نورة عامر، مرجع نفسه، ص98-99.

كما سعيينا إلى إبراز تجليات هذا العنف في السياق التربوي الوطني، وأخيرا اقتراح بعض الحلول للتخلص من العنف الرمزي ولو تدريجيا.

المطلب الأول: المدرسة كآلية ممارسة للعنف الرمزي (مقاربة ببيير بورديو)

يشكل الحقل التربوي بآلياته وديناميكياته الحقل الرئيسي لولادة مفهوم العنف الرمزي وتطور محتواه التربوي، وتشكل المؤسسات التعليمية بدورها مجالا للدراسات الاجتماعية والتربوية لسلوك العنف بشكل عام والعنف الرمزي على وجه خاص، وعلى الرغم من تنوع أشكال العنف المدرسي، والتي نذكر منها العنف الجسدي والعنف اللفظي، فإنه يمثل صورة للعنف العلني والظاهر¹. وبالرغم مما تعرفه المؤسسات التعليمية من عنف جسدي ولفظي (الكلاسيكي)، إلا أن العديد من أشكال العنف الخفي والعقلاني وغير الكلاسيكي تحدث في هذه المؤسسات تم التغافل عنها أو جهلها، والتي تنطوي على صور ودلالات تحتوي على عنف ثقافي و معنوي و رمزي و أخلاقي، وبقدرة كبيرة على تحقيق أهدافه بسهولة دون إدراك الآخرين بوجوده وخطورته.

ومؤخرا تعال الحديث بشكل كبير حول مفهوم العنف الرمزي وأبعاده للمفكر الفرنسي ببيير بورديو، لكونه واحدا من أبرز المنظرين في علم اجتماع التربية، الذين ساهموا في تطوير هذا المفهوم ودمجه ضمن نظريته البنوية، بتبنيه للعديد من المفاهيم السوسولوجية مثل السلطة الرمزية ورأس المال الرمزي، والعنف الإيديولوجي، والعنف الثقافي، ومع ذلك فالعنف الرمزي سبق وجوده أعمال هؤلاء الباحثين منذ عصور قديمة، لكن بورديو وجان كلود باسرون ساهما في كشفه وفهم أبعاده بشكل أفضل عبر إسهاماتهما الفكرية لما يعرف اليوم بـ "علم اجتماع التربية"².

صاحب نظرية العنف الرمزي، ينطلق من مبدأ أن العنف يتجسد في شكلين رئيسيين هما العنف المادي والعنف الرمزي، أولهما ظاهر يتجلى في أشكال مختلفة كالعنف الجسدي والعنف اللفظي، أما ثانيهما وهو العنف الرمزي فيتميز بأسلوبه وفعاليته في الهيمنة، حيث يرى بورديو أنه يمكن أن يتم ممارسة العنف تجاه شخص دون إدراكه وملاحظته لذلك، ويستخدم في ذلك الكلمات البريئة والرنانة ظاهريًا، أو الإيماءات، أو الحركات، أو عبر مواقف معينة كالتجاهل مثلا، هذا النوع من العنف "الخفي" غير المرئي، والذي يتكرر بشكل مستمر، يؤثر على النفسية البشرية ويسبب إرهاقا وألما للشخص المتضرر ويتحمل مرارته بصمت، مما يؤدي إلى وأد الحيوية والدافعية الشخصية، كما تتأثر طريقة تفاعله

1- علي أسعد وطفة، من الرمز واللغة إلى ممارسة العنف الرمزي، ص78.

2- علي أسعد وطفة، الأداء الإيديولوجي في منظور ببيير بورديو، مجلة العلوم التربوية، جامعة القاهرة، العدد الأول 2013، ص38.

مع أفراد أسرته ومحيطه بشكل عام والتي تكون مبالغة إلى الطيش والتهور وصولاً إلى العنف، وبالتالي الفشل في تحقيق ما يصبو إليه.¹

تماشياً مع ما سبق، ومن خلال كتاباته المعلنه حول السلطة الرمزية والعنف الرمزي، نجد أن هناك تطابقاً بين الفعل البيداغوجي والعنف الرمزي لدى بورديو، أي أن الفعل التربوي فعل رمزي في جوهره وبالتالي "إن أي نشاط تربوي هو موضوعياً نوع من العنف الرمزي، وذلك بوصفه قوة تفرض من قبل جهة اجتماعية معينة، ويواصل قائلاً إن كل فعل بيداغوجي موضوعياً هو عنف رمزي، على اعتبار أنه فرض، بواسطة سلطة اعتبارية لا اعتبارية ثقافي" ويتمثل الاعتبار الثقافي وتعسفه عند بورديو في الدلالات الثقافية المختارة أساساً للطبقة الاجتماعية المسيطرة، والتي تعبر عن ثقافة طبقية رمزية، لأن هذه الدلالات لا تستند إلى أية معايير أو أسس منطقية أو موضوعية، وإنما يخضع اختيار هذه الدلالات الثقافية التي تحدد موضوعياً ثقافة جماعة أو طبقة اجتماعية كنظام رمزي إلى منظومة من الشروط الفاعلة في الحقل الاجتماعي، وهذا ينعكس بطبيعة الحال على المجال التربوي، الذي تكون فيه ثقافة المؤسسات التربوية ترمز إلى ثقافة الطبقة المهيمنة.²

المطلب الثاني: إسقاط مقارنة العنف الرمزي في الحقل المدرسي الجزائري

من العسير في هذه الورقة البحثية، أن نرصد مختلف تجليات العنف الرمزي في مؤسساتنا التعليمية، والذي يتم التغاضي عنه أو تجاهله من طرف الفئة المستهدفة، بل حتى يجد قبولا اجتماعياً لعدم إدراكهم الحقيقي بخطورته، وعلى الرغم من ذلك حاولنا قدر المستطاع الكشف عن أبرز مظاهره والتي نلخصها كالآتي:

أولاً: وهم ديمقراطية التعليم والمساواة:

يعد شعار ديمقراطية التعليم والمساواة من أبرز الشعارات التي لطالما رفعتها دول عديدة تحدد الناجح وغير الناجح، والمتقدم والمتأخر، ولكن لأن الرأسمال الرمزي متفاوت بفعل تفاوت المستويات المجتمعية ومجموع معارف الطبقة البرجوازية يتناسب مع سواهم، تتحول المدارس إلى أداة طبقية لتعزيز السلطة

¹- إبراهيم بلوح، نظرية العنف الرمزي عند بيير بورديو، 2009، <https://wattani.wordpress.com>،

10، 06، 2023.

²- علي أسعد وطفة، الأداء الإيديولوجي في منظور بيير بورديو، مرجع سبق ذكره، ص40.

القائمة في المجتمع، طالما أن معايير التمايز هي وفقا لطرف واحد وليس معيار كلي، لأن المدرسة تحاكم الجميع وفقا لرأسمال رمزي لمجموعة واحدة هي عادة الطبقة الوسطى.¹

ثانيا: تعسف رمزي بتشريع مدرسي:

من الواضح جدا، أن حقل الحياة المدرسية يخفي خلفه تعسفا رمزيا تشعره القوانين والتقاليد المدرسية، التي تشتمل مكوناتها الظاهرة على عدالة مبدأها الأساسي القانون فوق الجميع وللجميع نفس الحظوظ. ووفقا لذلك تتلقى الطبقات المسيطرة تقويضا لترسيخ التعسف الثقافي، والذي من خلاله يتسلل العنف الرمزي بشكل هادئ. فلو أخذنا اللغة كمثال سنكتشف أن التلميذ المنتمي لأسرة غنية يملك كفاءة لغوية عالية مقارنة بزميله الذي ينتمي إلى عائلة فقيرة، لأن التلميذ الغني موارد المالية تسمح له بتكوين علاقات اجتماعية واسعة، والانضمام إلى مختلف المؤسسات الثقافية والمعاهد اللغوية الخاصة، بينما التلميذ الفقير يفتقد لكل ذلك، ومحصلة كل ذلك، أن فرص نجاح المتدرس الغني في الامتحانات تكون أكبر من الفقير، لأنه ليس من العدل اجتياز التلميذان لنفس الامتحان في حين يفتقران بشدة من حيث المكتسبات ودرجات النجاح.²

ثالثا: كثافة الكم المعرفي وهضم لحقوق التلميذ والمعلم:

يواجه التلاميذ في مختلف الأطوار والمستويات صعوبات جمة، والمتعلقة أساسا بكثافة البرامج الدراسية وبعدها عن اهتماماتهم وتطلعاتهم، ناهيك عن فرض معارف تجريدية تفوق مستواهم الذهني، دون إغفال الحجم الساعي الضيق و الضئيل الذي تقدم فيه، إضافة إلى ذلك نجد طغيان للجانب النظري وتهميش للجانب التطبيقي، وكذلك قلة الوسائل التعليمية أو عدم توفرها أحيانا خاصة الحديثة منها، وهذه مؤشرات كافية على وجود عنف نفسي غير محسوس، يسعى إلى تحطيم معنويات وقدرات التلاميذ.³

¹ - خلدون حسن النقيب، المشكل التربوي والثور الصامتة، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة. المستقبل العربي، عدد 174، 1993، ص55.

² - أحمد فكري شحاتة، إشكالية المنهج الخفي: مدخل لنقد التعليم المدرسي، دراسات تربوية صادرة عن رابطة التربية الحديثة، 1988، ص65.

³ - عزيزة خلفاوي، تحليل سوسيولوجي لأزمة المدرسة الجزائرية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الأول، 2020، ص437-438.

رابعاً: طرق التدريس والضغط على التلميذ والمعلم:

بالرغم من الاعتماد على أسلوب المقاربة بالكفاءات في المناهج الجديدة، أي أن يكون التلميذ محور العملية التعليمية، إلا أن تطبيقها لم يرقى إلى مستوى تطلعات الفاعلين التربويين، وهو ما أجبر معظم المعلمين إلى الانغماس في الطريقة الكلاسيكية في تقديم الدروس، أي الاعتماد على التلقين، وذلك بسبب مجموعة من العوامل التي لم تساعد في تفعيل المقاربة الجديدة، ومنها كثافة المقررات الدراسية والاكتظاظ الذي تعاني منه جل الأقسام، لذلك بقي التلميذ مرغماً على تلقي وحفظ ما يتلقاه من المعلم.¹

وقد بينت عدة دراسات وطنية أن المعلم يعاني من تهيمش كبير في السياسة التربوية، فيما يعاني أيضاً ضغوطات كبيرة أثناء عمله، وصعوبات في تأدية مهامه أبرزها مشكلة التكوين، لأن المعلمون لم يتلقوا التكوين الكافي في إطار طريقة التدريس الجديدة (المقاربة بالكفاءات)، و مطالبتهم في مقابل ذلك بتحقيق الكفايات البيداغوجية، فدراسة الباحثة علوط البتول على سبيل المثال أثبتت أن نسبة 68 % من المعلمون المبحوثين لم يستفيدوا من هذا التكوين، فيما أظهرت النتائج أيضاً أن نسبة 73 % من المبحوثين يرون بأن الموارد الدراسية تشكل عبئاً ثقيلاً على المدرس.¹

خامساً: مضامين دراسية بركام ثقافي وهوية مغتربة:

مما لا شك فيه أن " أصعب عنف قد يتعرض له المرء هو الذي يهدد البناء الثقافي للإنسان، ويعرض شخصيته الوجدانية والنفسية والهوياتية لخطر الاستلاب والاعتراق، وتحيا انفصاما في قناعاتها وعقائدها وسلوكياتها بدون إرادتها"² ، وهذا حال المقررات الدراسية المعتمدة في منظومتنا التربوية أو ما يعرف بمناهج الجيل الثاني، التي أقحمت في مضامينها قيم غربية تتنافى مع قيمنا وهويتنا الإسلامية والعربية والأمازيغية، والأكثر من ذلك، نجد أن الحجم الساعي لمواد الهوية (التربية الإسلامية، التاريخ والجغرافيا، التربية المدنية) ضعيف جداً مقارنة باللغة الفرنسية مثلاً، وهذا الواقع لا يخدم هوية التلميذ، ولا يحمل رسالة المجتمع التي أنشئت المدرسة من أجلها.

¹- لباتول علوط، تجليات العنف الرمزي على المعلم في ظل تطبيق المقاربة بالكفاءات (دراسة ميدانية بالمدارس الابتدائية بمدينة

الجلفة) مجلة تاريخ العلوم، العدد العاشر، 2017، ص 127-128.

²- رشيد أمشوك، تجليات العنف الرمزي في المدرسة المغربية المعاصرة، النداء التربوي، العدد 23، 2019، ص 107.

سادسا: السلطة في بناء المعرفة:

هي إحدى الممارسات التي تخفي خلفها تعسفا رمزيا، وقمعا فكريا أيضا للمعلم، فعندما تمنح السلطة للكتاب في الفصل الدراسي، وتفرض الأفكار أثناء التدريس، ويتم التقليل من استخدام الاستراتيجيات التفاعلية خلال الدروس، ويستخدم مركز السلطة لفرض أفكار سياسية، لا يتبقى شيء اسمه روح الإبداع والابتكار والمبادرة، فيصبح المعلم مجرد أداة تابعة وخاضعة في العملية التعليمية وليس فاعلا حقيقيا ورئيسيا كما يصوره لنا القائمون على المنظومة التربوية.¹

سابعا: التهميش والتمييز العلائقي:

لا يخفى على أحد على أن أحد عوامل نجاح العملية التعليمية، تنميين العمل الجماعي المشترك، وتقدير الجهود المبذولة لجميع الأطراف التربوية، والتي تمر عبر علاقات اتصال بين المعلمين والتلاميذ والإدارة المدرسية أساسها الاحترام والمساواة، بعيدا عن التهميش والانحياز لتمييزات جغرافي أو مادي أو اعتقادي أو لأسباب أخرى، مثلما هو موجود في الواقع المدرسي الذي تبدو فيه العلاقات التربوية ظاهريا على أنها ممتازة ولا يشوبها شائبة، لكن في حقيقة الأمر تخفي وراءها علاقات قوة ونفوذ واستبداد على حد تعبير بيبير بورديو الذي يقول في هذا الصدد "يتعين النشاط التربوي موضوعيا، في حيثية أولى كعنف رمزي، وهي كون علاقات القوة بين الجماعات والطبقات التي تتألف منها من التشكيلة الاجتماعية، توصل النفوذ التعسفي باعتباره شرطا لانعقاد علاقة الاتصال التربوي"².

المطلب الثالث: سبل التخلص من العنف الرمزي في التعليم الجزائري

لمكافحة العنف الرمزي اللصيق بنظامنا التربوي، يجب اتخاذ العديد من الإجراءات والسبل التي تعزز الوعي وتعمل على تغيير الثقافة وتوفير بيئة تعليمية آمنة وداعمة. وفيما يلي بعض السبل التي لا بد من إتباعها:

أولا: التوعية والتثقيف: وذلك من خلال:

1- توفير برامج وأنشطة تثقيفية تركز على التعريف بمفهوم العنف الرمزي وآثاره السلبية.

¹ - رقية وافي، دلالات العنف الرمزي كما يدركه التلاميذ وعلاقتها بإنجازهم الأكاديمي (دراسة ميدانية على عينة من تلاميذ المرحلة الثانوية)، مجلة التغير الاجتماعي، العدد السادس، د ت، ص 437.

² - بيبير بورديو، العنف الرمزي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 8.

- 2- توفير برامج وأنشطة توعوية تركز على التعريف بالتعسف الثقافي وتأثيراته السلبية على التلاميذ والمعلمون وغيرهم من الفاعلين التربويين الذين هم ضحايا هذا التعسف.
- 3- تعزيز الفهم والاحترام للثقافات المختلفة وتشجيع الحوار والتفاعل الإيجابي بين مختلف شرائح ونخب المجتمع.

ثانيا: إصلاح مناهج التعليم وتطويرها: ومن مؤشرات الفعالة:

- 1- إدماج مناهج تربوية شاملة وتعدد ثقافات تسلط الضوء على التنوع الثقافي بين مختلف شرائح المجتمع والتأكيد على أهمية التعايش السلمي .
- 2- تضمين مناهج تعليمية تعبر حقيقة عن هوية المجتمع الجزائري (العربية، الأمازيغية، الإسلام)، والأهم من ذلك تخصيص الحجم الساعي والمعامل الكافيين لها.
- 3- استحداث دروس تعليمية تحذر من خطر العنف الرمزي في المدارس .

ثالثا: تكوين لجان ولجان تفتيش مستقلة: مهمتها متابعة السير الحسن للعملية التربوية، من آليات عملها:

- 1- تشكيل لجان مستقلة مكونة من ممثلين عن مختلف الأطراف المعنية، بما في ذلك التلاميذ والمعلمين وأولياء التلاميذ وخبراء في مجال التعليم .
- 2- تكليف هذه اللجان بمهمة مراقبة وتقييم سلوكيات العنف الرمزي في المدارس وتوصية بإجراءات للحد منه.
- 3- ضمان تطبيق العقوبات بصرامة وعدالة، بغض النظر عن الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي للطرف المتسبب في العنف الرمزي.
- 4- إلزام الإداريين بحسن التدبير والتسيير المدرسي.
- 5- وضع سياسات وقوانين صارمة لمحاربة العنف الرمزي بكافة أشكاله وتحدد العقوبات المناسبة للمخالفين.

رابعا: التدريب والتطوير المهني للكوادر التربوية: من خلال القيام ب :

- 1- تشجيع المدارس على تبني سياسات شمولية ومنصفة تحترم وتعزز حقوق الجميع دون تمييز.
- 2- تزويد المعلمين بالأدوات والمهارات اللازمة للتدريس الفعال.
- 3- عقد ندوات تكوينية دورية لصالح المعلمين والإداريين للتصدي للعنف الرمزي

خامسا: توفير فرص متساوية للجميع: والمقصود بذلك:

- 1- ضمان توفير فرص تعليمية وتعلمية متساوية للجميع دون تمييز بناءً على الجنس أو العرق أو الدين أو الطبقة الاجتماعية أو القدرات الشخصية.
- 2- توفير الموارد اللازمة للتلاميذ و باقي الفاعلين التربويين الذين يعانون من ظروف صعبة وتوفير دعم إضافي لتعزيز مبدأ تكافؤ الفرص.

سادسا: الإبلاغ والدعم: ويكون عبر:

- 1- تشجيع الضحايا على الإبلاغ عن حالات الاستغلال والتجاهل الرمزي بطرق آمنة وسرية.
- 2- توفير دعم متخصص واحتضان الضحايا لمساعدتهم في التعامل مع تجاربهم وتقديم الدعم النفسي والقانوني اللازم.
- 3- إنشاء نظم رصد ومتابعة للحالات المشتبه فيها أو المبلغ عنها للتحقق منها والتصدي للتجاوزات والاستغلال.
- 4- إجراء تقييمات دورية لفعالية السياسات والإجراءات المتبعة وإجراء التحسينات اللازمة.

سابعا: تعاون مجتمعي: ويهدف ذلك إلى:

- 1- تعزيز التواصل والتعاون مع أولياء الأمور والمجتمع المحلي لتعزيز التعايش الثقافي .
- 2- إشراك المجتمع المدني في فعاليات المدرسة وتعزيز التواصل بين مختلف فئات المجتمع.
- 3- تشجيع الأهل على الإبلاغ عن أي حالات للعنف الرمزي التي يعلمون بها والمساهمة في التدخل الفعال.

الخاتمة

كحوصلة لما سبق، يتضح بأن مقارنة العنف الرمزي التي طرحها بوير بورديو في أعماله الاجتماعية والتربوية، تعد من أهم النظريات التي أصبحت تجلب اهتمام الباحثين السوسيولوجيين في المدة الأخيرة، كون العنف الرمزي يختلف عن غيره من أنواع العنف مثل العنف الجسدي واللفظي والمادي، فهو يتميز بخصائص فريدة قد تطرقنا إليها سابقا، أهمها أسلوب التخفي في استهداف الأفراد و ثانيها الأثر المعنوي العميق الذي يلحق بضحاياها.

بالنسبة لملاح العنف الرمزي التي رصدناها في نظامنا التعليمي، والتي نعتبرها من المؤشرات الخطيرة التي تضر بمكونات العملية التربوية والمجتمع ككل، نجد أبرزها عدم تكافؤ الفرص في التعليم، تعسف رمزي خلف تشريع مدرسي، كثافة الكم المعرفي وهضم لحقوق التلميذ والمعلم ، طرق التدريس

الضاغطة والمقيدة، المضامين الدراسية المغتربة ثقافيا، بناء المعارف بعيدا عن سلطة المعلم، إضافة إلى التهميش والتمييز العلاتقي بين الفاعلين التربويين.

بناء على ذلك، وأمام معضلة التخلص من العنف الرمزي المتسلل إلى المجال التربوي، وحتى يتمكن التلاميذ والمعلمين على وجه الخصوص تأدية الأدوار بحرية وأريحية دون تعرضهم للعنف الرمزي، وأن تكون المدرسة مكانا يعزز الاحترام المتبادل والتعاون والتسامح والتنافس، بعيدا عن الحسابات والمصالح الضيقة التي تؤدي إلى التعسف والتسلط والتمييز والتهميش... الخ، والتي تقف عائقا أمام تحقيق تعليم حقيقي وهادف، يتعين علينا جميعا العمل على بناء بيئة تعليمية آمنة ومشجعة، من خلال اتخاذ إجراءات وتدابير علاجية ووقائية للنأي بمخاطر العنف الرمزي، تمر عبر:

- إصلاحات تربوية شاملة، تلمس المناهج التعليمية مع استحداث لجان تربوية مستقلة مهمتها متابعة ومراقبة سير العملية التعليمية، إضافة إلى توفير فرص تعليم متساوية تراعي الفروق الفردية اقتصاديا واجتماعيا، طبعا بالموازاة مع القيام بنشاطات توعوية وتنقيفية يشارك فيها كل شرائح المجتمع.
- تحسين ظروف العمل لجميع المعلمين دون استثناء، ماديا ومعنويا.
- ضمان سياسات مدرسية مناسبة، إذ يجب على المدارس والمؤسسات التعليمية وضع سياسات صارمة ضد العنف الرمزي، والتأكد من تنفيذها بشكل فعال.
- تدريب المعلمين على التواصل الفعال وحل النزاعات، والتي تنشأ مع التلاميذ، أو مع الإدارة المدرسية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

1. ابن منظور، لسان العرب، المجلد التاسع، دار صادر، بيروت، 1968،
2. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1986.
3. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1982.
4. أميمة منير جادو، العنف المدرسي بين الأسرة والمدرسة والإعلام، دار السحاب للنشر، مصر، 2005.
5. أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصباغ، مؤسسة ترجمان للوحدة العربية، لبنان، 2005.
6. بيبير بورديو، العنف الرمزي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.
7. عائشة لصلح، العنف الرمزي عبر الشبكات الاجتماعية الافتراضية، مؤسسة دراسات وأبحاث، الجزائر، 2016.

8. علي سموك، إشكالية العنف في المجتمع الجزائري من أجل مقارنة سوسيولوجية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
9. علي عبد القادر القرالة، مواجهة ظاهرة العنف في المدارس والجامعات، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2015.
10. محمود سعيد الخولي، العنف المدرس الأسباب وسبل المواجهة، مكتبة أنجلو مصرية، القاهرة، 2008.
11. Bourdieu pierre, le sens pratique, Paris, 1980.

ثانيا: الرسائل والمذكرات

1. نورة عامر، التصورات الاجتماعية للعنف الرمزي من خلال الكتابات الجدارية (شهادة ماجستير)، قسم علم النفس وعلوم التربية، جامعة منتوري بقسنطينة، 2005-2006.

ثالثا: المقالات

1. الباتول علوط، تجليات العنف الرمزي على المعلم في ظل تطبيق المقاربة بالكفاءات (دراسة ميدانية بالمدارس الابتدائية بمدينة الجلفة)، مجلة تاريخ العلوم، العدد العاشر، 2017.
2. خلدون حسن النقيب، المشكل التربوي والثور الصامتة، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، المستقبل العربي، عدد 174، 1993.
3. رشيد أمشنوك، تجليات العنف الرمزي في المدرسة المغربية المعاصرة، النداء التربوي، العدد 23، 2019.
4. رقية وافي، دلالات العنف الرمزي كما يدركه التلاميذ وعلاقتها بإنجازهم الأكاديمي (دراسة ميدانية على عينة من تلاميذ المرحلة الثانوية)، مجلة التغير الاجتماعي، العدد السادس، دت.
5. عزيزة خلفاوي، تحليل سوسيولوجي لأزمة المدرسة الجزائرية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد الأول، 2020.
6. علي أسعد وطفة، من الرمز واللغة إلى ممارسة العنف الرمزي، مجلة شؤون اجتماعية، العدد 104، 2009.
7. علي أسعد، وطفة، الأداء الإيديولوجي في منظور بيبير بورديو، مجلة العلوم التربوية، 2013.

رابعا: المواقع الإلكترونية

1. إبراهيم بلوح، نظرية العنف الرمزي عند بيبير بورديو، 2009، <https://wattani.wordpress.com>

تاريخ التصفح: 10، 06، 2023.

2. عبد الإله فرج، العنف عند التلاميذ في الوسط المدرسي (المفهوم - الأسباب)، منهل الثقافة التربوية،
<https://www.manhal.net/art/s/20883> ، 2016 ، تاريخ التصفح: 20، 06، 2023.